منى حاطوم والهوية المستعصية

محمد حجيري
الأحد 05/07/2015

في خلال جلسة مع أحد الأصدقاء، وهو من دعاة "الثقافة اللبنانوية"، قال إن الفنانة منى حاطوم (تعرض أعمالها حالياً في "مركز بومبيدو" في العاصمة الفرنسية)، كانوا يعرّفونها في البداية على أنها "فلسطينية – لبنانية"، لأنها من أصول فلسطينية وولدت في بيروت من أسرة لاجئة، والآن بعدما اشتهرت عالمياً صارت فلسطينية فحسب، وثمة من يقول إنها فلسطينية – بريطانية لأنها تعيش بين برلين ولندن.

هذا الكلام العابر في المقهى، فتح الباب للحديث عن الشخصيات الفلسطينية – اللبنانية او التي عاشت ازداوجية "الهوية" في الوسط الثقافي بين فلسطين ولبنان، والتي فيها الكثير من التناقض والفولكلور والحكايات والتصريحات الملتبسة. الهوية ليست جنسية الفنان أو الفنانة فحسب، هي ثقافة قبل كل شيء، هي أدوات فكرية في حياة كل شخص، أو ما يسمى "الهوى الفكرى" أو الثقافي... منى حاطوم التي هجّر الاحتلال الاسرائيلي أهلها الى مخيمات لبنان، وهجّرتها الحرب الأهلية اللبنانية لتنطلق حياتها الابداعية في بريطانيا، ردت في أكثر من مناسبة، على سؤال الهوية قائلة: "سؤال عن الهوية هو سؤال صعب جداً، كيف تعرِّف الهوية في حين أن الهوية نفسها تتغير باستمرار؟ الهوية ليست بشيء ثابت فهي تعتمد على الثقافة التي يعيش فيها الإنسان، وعلى العوامل الأخرى التي تؤثر في إنشائه، شخص مثلي عاش في لبنان في الفترة الأولى من حياته، ثم مجيئي إلى الغرب، كل هذه المؤثرات تصنع شيئاً يصعب تعريفه، لذلك فكوني فلسطينية يعني كل شيء ولا شيء في آن واحد".

وتدخل حاطوم في أعمالها بعض الرموز، كالصابون والكوفية للتعبير عن الهوية الفلسطينية، لكن أعمالها في المجمل تعكس واقع العالم واضطرابه، وهي تقاوم من خلال أعمالها، الفن التجاري السائد. وبحسب إدوارد سعيد، تُمسك منى حاطوم بمفهوم الهوية –ربما شبحها فقط– بنفسها. هكذا يجري تشكيل المنفى ورسم حدوده في الأشياء التي تعمل على ابتداعها. إن عمل حاطوم يمثل مفارقة السلب وهي تتموضع في العالم، وتقف بثبات في فضاء اليومي معروضة أمام عيون الناظرين ليروا وينجوا، بطريقة ما، ممّا يتلألأ أمامهم. لا أحد استطاع أن يجسد التجربة الفلسطينية بصرياً بهذه الصرامة.

ليست منى حاطوم سوى نموذج لعشرات الشخصيات التي تجمع ازدواجية الهوية وربما أكثر من هوية بين فلسطين ولبنان والغرب والعالم العربي. والمحنة هي الهوس بلعبة الأصل والجذور واللعب على وتر "الهوية" على نطاق ضيق من خلال صغائر الأمور. فمثلاً، كان الشاعر (الشوفيني) اللبناني سعيد عقل، يحب أن ينسب الكثير من العباقرة العالميين إلى "الهوية اللبنانية" او الفينيقية، الى درجة أنه دعا، رغم موقفه المتشدد من الفلسطينيين، إلى تجنيس وديعة جرار، أستاذة الدبكة في مهرجانات بعلبك لكي تكون لبنانية في حال موتها. وديعة تزوّجت من مروان جرّار واستقرّا في لبنان، وكانت لها ولزوجها أدوار فنيّة رائعة، منها المشاركة الفنيّة في مشروع "فرقة الأنوار الشعبيّة". ولاقت نجاحاً في البلاد التي زارتها وقدّمت فيها الرقصات الشعبية والفولكلورية اللبنانية في العديد من العواصم العالمية، فارتبط اسم وديعة ومروان جرّار بأكثر الأعمال الفنيّة في لبنان. وعلى هذا، لم يكن غريباً أن يكسر سعيد عقل "شرنقة الشوفينية"، ليضم الى جمهوريته الفنانة الفلسطينية التي تعيش في لبنان وتساهم في الاعلاء من شأن فنه وفولكلوره.

الفنان بول غيراغوسيان كان موضع التباس في الحديث عن "أصوله"، ربما لأنه نجح في فنه التشكيلي، فتعددت الجهات التي تتبناه سواء في الهوية أو حتى السياسة. خرج غيراغوسيان من رحم عائلة أرمنية هاجرت من أرمينيا إلى القدس بسبب المجازر التي افتعلها الأتراك بالأرمن في صحراء دير الزور. وجد في القدس ملجأً له ولعائلته بعدما أصيب بالعمى جراء التعذيب الذي مورس عليه. ثم وصل الفنان إلى لبنان، وفي هذا البلد كان أرمنياً قريباً من اليسار الشيوعي، وكان لبنانياً، وكان

عالمياً في لغته، فتعددت هوياته. لكن أعمال غيراغوسيان تتخطى الهويات والجنسيات واللغات، بل إن هويته في الألوان التي برع في تقديمها لجمهوره العالمي...

وقبل مدة قرأنا في إحدى الصحف اللبنانية أن أهالي بلدة شحتول(جبل لبنان) يرفضون ما يورده بعض المراجع عن أن مي زيادة "أديبة وشاعرة فلسطينية، لأنها، رغم ولادتها في الناصرة، فإنها لبنانية بامتياز". لذا أقامت بلدية شحتول نصباً لها في ساحة البلدة، مسقطها. من يقرأ سيرة مي زيادة سيضحك على فكرة "الهوية" وفولكلورها بالمعنى المحلي. لا يعرف كثيرون من محبي مي زيادة مدى الأذى الذي تعرضت له الأديبة بعد وفاة والديها، فقد وجدت نفسها وحيدة في بيتها من دون حماية أحد، فقررت إلغاء ندوة صالونها الأسبوعية في القاهرة، وأكثر فصول عذاباتها أنها، وبهدف الاستيلاء على الأملاك التي ورثتها، استدرجها أحد أقربائها لتجد نفسها ترتدي قميص المجانين في "العصفورية"، وهو زعم أنها تعاني اضطرابات عقلية تستدعي علاجاً دائماً. ولتكتمل رحلة عذاب مي زيادة، خطت سطورها في كتاب "ليالي العصفورية" الذي توارت مخطوطته عن الأنظار ولم تزل. والتماثيل لا تعيد الاعتبار لأديبة تلقت العذابات، ولا تساهم في تكريم أدب الراحلة، ولا تبدل شيئاً في هويتها. لا شيء يبدل في شخصية مي زيادة، سواء كانت فلسطينية أو لبنانية أو مصرية، لأن الأصول ليست أكثر من أوهام...

أحياناً يتم التعاطي مع "الأصل" الفلسطيني بشيء من الفذلكة واللف والدوران، أو يبحث بعضهم عن فتوى تخلصه من "سؤال الأصل" وسخافته في لبنان الذي عاش فريق من جماعاته لسنوات "فوبيا الفلسطيني" أو "الغريب". قبل مدة، كانت دعاية "الأخوين شحادة" (اللذين يقدمان عروضاً موسيقية في مسارح بيروت)، انهما "مارونيان من فلسطين"(يا للهول!)، لكن، بعد حصولهما على الجنسية اللبنانية، قالا إنهما من أصول لبنانية، وجدّهما ذهب الى فلسطين وهما الآن استعادا الجنسية... وعند التطرق لجذورها الفلسطينية تقول الفنانة ماجدة الرومي "أريد أن أوضح أمراً لإزالة الالتباس فقط، وليس لأي شيء آخر، أنا لبنانية أباً عن جد من مدينة صور الساحلية، وجدي وأسرته تركوا صور ورحلوا إلى حيفا وعاشوا فيها وكان لهم تزاوج في فلسطين". وتردف ماجدة الرومي "يشرفني أن يسري في عروقي الدم الفلسطيني الذي هو دم عربي من الأرض المقدسة...".

لا نريد الدخول في تفاصيل أسماء الكثير من المشاهير أو رجال الأعمال الذين يقال انهم من أصل فلسطيني ويحملون الجنسية اللبنانية، فالأمر يحتاج كتاباً والموضوع بات مملاً. على أن محاولة بعضهم الهروب من فكرة الأصل الفلسطيني فيه سذاجة، وإصرار البعض الآخر على الحديث عن أصول هذا وذاك سذاجة أيضاً... والأرجح أن بروز الحديث عن الأصول والهويات يكثر في زمن الأزمات. في البدايات كان لبنان وفلسطين أشبه ببلد واحد، أو لا تفصلهما حدود أو هويات. حتى البرجوازي المسيحي، ألبير فرعون، كان يذهب في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، إلى حيفا ويعشق الصهيونية غولدا مائير.. ولم ترتفع جدران الحدود بين فلسطين ولبنان إلا بعد نكبة 1948 ثم زادت ارتفاعاً بعد هزيمة 1967، بل مهّدت هذه الهزيمة لأزمة هويات وللحرب الأهلية اللبنانية(1975 - 1990)، وبروز نموذج خطاب سعيد عقل.

©جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2017